

الباب الثالث ما بعد الثورة

الفصل الأول

النفى والإبعاد

□□□

الفصل الثاني

أزمة مارس ١٩٥٤

□□□

الفصل الثالث

الاعتقال

□□□

الفصل الرابع

أخلاق الفرسان

□□□

الفصل الخامس

على طريق الرحيل

الفصل الأول النقى والإبعاد

اتسع نفوذ المجلس وقاد جمال عبد الناصر المجلس بطريقة المستبد المعكوسة التي أوضحها عبد الرحمن الكواكبي في كتابه (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) حيث يقول «كلما كان المستبد حريصاً على العسف احتاج إلى زيادة جيش المتمجدين العاملين له والمحافظين عليه واحتاج إلى الدقة في اتخاذهم من أسفل السافلين الذين لا أثر عندهم لدين أو وجدان واحتاج لحفظ النسبة بينهم في المراتب بالطريقة المعكوسة وهي أن يكون أسفلهم طباعاً أعلاهم وظيفة وقرباً». وبالضبط سار عبد الناصر ومجلسه على هذا النهج من تقريب الأشرار وتوقيهرهم وتنصيبهم على العباد والبلاد وإبعاد الأخيار ووصل الخلاف ذروته وقالها عبد الناصر للجميع «مفيش قعاد هنا»، ونفوا البطل يوسف صديق خارج البلاد كما فعلوا بخالد محيي الدين فيما بعد عندما اختلف معهم وتم نفيه بعدها بعام كامل تأخر فيه وضع وقته ظناً منه بأنه يستطيع أن يغير هذه النفوس. لكن يوسف صديق كان أكثر رؤية منه فقد سبقه في الخلاف بحوالى عام كامل

وهذا يرجع إلى طبيعة كل منهما كما أوضحها أحمد حمروش أحد الضباط الأحرار وهو يصف يوسف صديق بأنه أكثر صراحة وانفعالاً بينما كان خالد محيي الدين أكثر هدوءاً ومرونة. وهذا هو سبب تأخر استقالة خالد محيي الدين لمدة عام كامل بعد استقالة يوسف صديق.. زاد الخلاف واتسعت الفجوة وهنا تدخل بعض الضباط للتهدئة ومحاولة الوصول لحل وسط حتى جاءت التعليمات بإبعاد يوسف صديق من المشهد وعدم رجوعه حتى إلى صفوف الجيش حتى لا يثير الضباط ويحمّسهم ويجعل الجيش يطالب مجلس القيادة بالاستقالة اقتداءً بيوسف صديق والرجوع إلى ثكناتهم لذلك كانت فكرتهم هي إبعاد يوسف صديق عن المشهد تماماً وذلك عن طريق إبعاده إلى أسوان بحجة الراحة والاستجمام بها لفترة غير معلومة من الزمن وحيداً كي تهدأ أعصابه ويستريح جسمه وفكره من عناء السياسة وبالفعل أرسلوا له بعض الضباط في قريته زاوية المصلوب التي عاد إليها بعد تقديم استقالته ليستريح بها ويكمل فيها بقية حياته كي يأخذه إلى منفاه الجديد بأسوان وقبل يوسف هذا المنفى المجلّم وذهب معهم دون صدام يذكر في حين طلبوا هم منه التماس العذر لهم حيث إنهم كانوا من تلاميذه وضباط كتيبته التي قاد بها اقتحام

مقر القيادة العسكرية وأيضاً كانوا هم عند حسن ظنه ولم يعاملوا قائدهم البطل طوال مدة الإبعاد هذه إلا بكل احترام وتقدير. فقد تركوا له مكانهم في الاستراحة حينما وجدوا زوجته قد حضرت معه واستأجروا مكاناً آخر بجواره للسكن فيه..

وفي هذه الرحلة القصيرة ظهر معدن الزوجة النفيس (بنت البلد) وهي تقف بكتف زوجها فقد أحست بالقلق عليه وراودها الشك والخوف على زوجها الحبيب فجهزت ملابسها وحقائبها ونوت السفر وما أن وصل يوسف صديق والضباط الحراس المرافقون له حتى وجدوا زوجته عليّة توفيق مصطحبة معها أولاده وفي انتظارهم في محطة أسوان فقد سبقتهم بالقطار إلى هناك حيث عرج يوسف ورفاقه على مديرية بنى سويف أولاً ثم سافروا منها إلى أسوان.

اجتمعت الأسرة في منفاهما بأسوان وبعدها مباشرة تم القبض على زوج ابنته الأستاذ «محمود توفيق» كنوع من الضغط عليه للتنازل عن مبادئه وأفكاره لكنهم لم يكونوا قد فهموا يوسف صديق حتى الآن وأظنهم لم يفهموه حتى بعد مماته.

مكثت الأسرة حوالى شهراً ونصف الشهر في إحدى الاستراحات الحكومية ثم عادت للإقامة الجبرية والحراسة

المشددة في منزلها بحلمية الزيتون ومن الغريب الذى يحكي ابنه حسين يوسف صديق أن والده بعد سنوات فوجئ بخطاب من هذه الاستراحة الحكومية تطالبه بثمان الإقامة التى قضاه فيها فأرسل يوسف الخطاب إلى جمال عبدالناصر قائلاً: «مذ متى يدفع المعتقل إيجار معتقله.. أظنك أولى بهذا الأمر منى». ورجعت عائلة يوسف إلى بيتهم بحلمية الزيتون بالقاهرة وذلك للالتحاق بالدراسة لأن الإجازة كانت قد انتهت وتركوا يوسف وحيداً ولكنه مع الضغط والإصرار استطاع أن يلحق بهم بعد أسبوعين بالقاهرة حيث كان قرار النفى فى انتظاره فقد زاره جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر بمنزله ونصحوه بالسفر إلى سويسرا بحجة العلاج فى مارس ١٩٥٣م لحين تهدئة الأمور واستقرار البلاد والحفاظ على وحدة الصف وأخبروه أنه سوف يعود بعد ثلاثة أشهر ليمارس عمله بالجيش وبعد مضى ثلاثة أشهر كانت من أصعب الشهور التى قضاه يوسف صديق فى حياته وحيداً غربياً طريداً فى بلاد لا يعرف فيها أحداً ولا يعرفه أحد ولا يثاور عليه أحد ويقول هذا هو البطل أو هذا هو منقذ الثورة لم يتوقع يوسف هذا المصير المؤلم من الغربية والتشرد والتهميش فقد عانى من ألم المنفى بكل ما تحمل الكلمة من معنى

لمنفى المعنوى والمادى وبعد تحمل هذه الشهور الثلاثة الكثيبة لى عمر يوسف صديق طلب يوسف الرجوع إلى وطنه فظلوا بماطلون ويماطلون وفى النهاية رفضوا وأبلغوه أنه غير مرغوب فيه داخل مصر..

ثم بعد ذلك طلب أن يكون منفاة فى أى بلد عربى كى يخفف من حدة الغربة ولو القليل فعرضوا عليه على سبيل «إطعم الفم تستحى العين» أن يكون سفيراً فى الهند أو أن يوفروا له أى منصب دبلوماسى خارج مصر بشرط أن يبتعد عن مصر وسياستها وينسى أفكاره ويبيع مبادئه لكنه رفض بشكل قاطع ثم تم نقله إلى لبنان كمنفى عربى - كما طلب - وأثناء تواجده بلبنان دبر عبد الناصر حيلة مأكرة لزوجته عليه توفيق من خلال جهاز مخابراته فقد اتصلوا بها تليفونياً وقال المتحدث لها: «لقد مات يوسف صديق» ثم قفل الخط وانتهت المكالمة ليضعوا الزوجة المسكينة فى موقف لا تحسد عليه فقد دارت الشكوك فى صدرها وسريعاً ما اتصلت بكل القيادات التى تعرفها لتتأكد من صحة الخبر الذى سمعته ولكنها لم تجد من يروى ظمأها ويطمئنها على زوجها فقررت أن تتصل بجمال عبد الناصر فى بيته وبالفعل تلقت التليفون واتصلت به ولكن ردت عليها زوجة جمال عبدالناصر ليدخلا فى حوار جدلى أدى إلى مشادة كلامية

عرف بها عبد الناصر وأحس منها أنه وصل لهدفه من إثارة قلق عليّة توفيق على زوجها هنا تدخل بالجزء الثاني من الحيلة الماكرة وعرض على الزوجة عليّة توفيق هي وأولادها السفر إلى زوجها في لبنان للاطمئنان عليه والإقامة معه ومساندته في هذه الفترة الصعبة من حياته فما كان من عليّة توفيق إلا أن وافقت على هذا العرض للاطمئنان على زوجها خصوصاً بعد ما سمعت الكثير من الأشاعات عن اغتياله في هذه الفترة وبالفعل ذهبت لزوجها يوسف صديق في لبنان وبذلك يكون قد ضرب عبد الناصر عصفورين بحجر واحد. فقد استراح من عليّة توفيق ونشاطها السياسي المعارض في مصر وفي نفس الوقت أرسل إلى يوسف صديق عائلته معه في منفاه عسى أن تُشعره بالاستقرار وتقبل الوضع الحال على ما هو فيه ولكن هيهات فيوسف صديق شخصية صعيدية عنيدة رفض الاستسلام للنفي وعاد سراً إلى مصر وذهب إلى قريته الصغيرة زاوية المصلوب ليبقى مختبئاً بها لفترة قصيرة وكان يداعب زوجته في هذه الفترة بعد رجوعه سراً ويقول «كانوا يريدون أن يدفنوني في تاج محل بالهند لكنني رفضت فأنا لن أدفن إلا في قريتي زاوية المصلوب» ولم يخبر أحداً بعودته إلا أقاربه وبعض أصدقائه المقربين كمحمد نجيب فيمجرد نزوله إلى مصر أرسل إليه خطاباً يعلمه بقدمه وأنه يمكن في قريته فقد

كان بين الاثنين مودة ومحبة ولدتها سنوات الجيرة فى حلمية الزيتون وأيضاً تقارب آراء ووجهات نظر ولدتها مبادئ الإيمان بالحرية والديمقراطية.

وفى أثناء هذه الفترة بزواية المصلوب عقب هروبه من المنفى ببيروت علم عبد الناصر بهروبه وإقامته بالقرية ف ضرب عليه الإقامة الجبرية وجاء مأمور مركز الواسطى ليبلغه بأن جمال عبد الناصر وزير الداخلية قد فرض عليه الإقامة الجبرية بمنزله بالقرية وعليه الالتزام..

فحزن يوسف صديق أشد الحزن بل حزنت القرية كلها وانتشر رجال وشباب القرية يواسون عزيزهم يوسف صديق ويساعدون أصدقاءه المتنكرين الذين جاءوا ليزوروه سراً بعيداً عن أعين رجال البوليس فانتظروهم على كبارى البلد وأدخلوهم من داخل الغيطان وألبسوهم ثياب الفلاحين حتى يستطيعوا أن يصلوا للبطل يوسف صديق دون مشاكل ودون أن يعرفهم أحد وعلى الرغم من ذلك فقد استعدت القرية بالكامل للدفاع عن ابنها يوسف صديق بالسلاح حتى ولو كلفها ذلك الدم ولكن مرت الأمور بهدوء ودون مشاكل ولم يلبث أن انتهت الإجازة الصيفية وبدأت الدراسة فانتقل هو والأسرة إلى بيته فى حلمية الزيتون ليعيش تحت الإقامة الجبرية

وحراسة مشددة من البوليس الحربى جعلت تحركات البيت كله
إن وجدت تكون بحساب.

وفى هذه الفترة زاره الكثير من الضباط لمحاولة التقريب ووأد
الفتنة لكنه قَبِلَ أى حوار دون التنازل عن أى مبدأ ، ولذلك باءت
كل المفاوضات بالفشل وفى أثناء فترة النفى خارج البلاد سطر
الشاعر يوسف صديق هذه الفترة فى قصيدته «من الجنة» قائلا:

أنا من بلاد رواها النيل فى كرم
وفى وفاءٍ كساها أجمل الحلل
فيها الجمال وفيها السحر من قدم
كم أوقعت فى شراك الحب من بطل
بشوشةً فى وجوه الضيف تسعدهم
فيها الحياة وتبكي كل مرتحل
حتى لقد ظن بعض الغافلين بها
سوء الظنون وقالو إن تطب تنل
فأبعدونى إليكم ألف مغفرةٍ
لأهل مصر وإن هم شوهاوا عملى
يا أخت إنى شهيدٌ جنئت جنتكم
هل فى الجنان يداوى الداء بالشعل

أجر الشهيد سألت الحسن في وله
وفي الجنان نعيمٌ غير مبتذل
لا تحرميني رضاب في عذوبته
شيء من النيل في طيف من الأمل
يامصر إنى ونار الشوق تفتك بي
على البعاد لأدري أن حبك لي
فمن فتاك الذى إن سل صارمه
حل القضاء به في أبرع الحيل
إن الجلاء الذى تبغيه أربُ
يُنال بالسيف لا يرجى من الدول
فلا يغرنك وعدُّ لا وفاء له
كم من خصومك من لؤم ومن مطل
لسوف يأتيك يوم تهتفين به
يا للرجال وأين اليوم لى رجلى
لبيك يا أم إنى غير مبتعدٍ
إلا لأكفيك شر الدس والدجل
أنا الوفى الذى لم يثنه دمه
ينساب من صدره عن يومك الحفل
لم يكفنى شرفاً أن كنت شاهده
بل كنت فيه فتى فتيانه الأول

الفصل الثانى

أزمة مارس ١٩٥٤

نجم الانقلاب الذى أيدته الشعب بسرعة فائقة ووقف بجانبه لى يتحول إلى ثورة تسيطر فى تاريخ مصر خصوصاً عندما علم بمبادئهم التى أعلنوها فى بداية حركتهم والتى كانت كالتالى:

– القضاء على الاستعمار والجملاء الفعلى لكل جندى أجنبى من مصر.

– القضاء على الإقطاع بكل صورته.

– القضاء على سيطرة رأس المال على الحكم.

– بناء جيش وطنى قوى يدافع عن كل شبر من أرض الوطن

ويقف فى وجه أى معتدٍ.

– تشييد حياة ديمقراطية جديدة على أسس حديثة وسليمة.

– العمل على إقامة عدالة اجتماعية داخل المجتمع أعجب

الشعب بهذه الشعارات الرنانة والمبادئ الوهمية، فلم يكن يتصور

أن هذا كله كلام على ورق ربما لم يقرأه حتى الكثير من الضباط

الأحرار أنفسهم.

خُذع الشعب وأعجب بشعار «ارفع رأسك يا أخى» وقَبِلَ

الانقلاب وأيد مجلس قيادة الثورة بكل قوته حتى ظهرت ملامح الديكتاتورية فقد حل المجلس الأحزاب وألغى الدستور وأعلن فترة انتقالية يمهّد بها لحياة عسكرية طويلة الأمد وأصدر قراراً بحل جماعة الإخوان المسلمين، وبدأ الكلام يكثر عن فساد الضباط والأموال السرية والتمهيد لتكوين دولة المخابرات والفضائح الجنسية والمحسوبيات والرشاوى وغيرها وغيرها..

ثم جاءت القشة التي قصمت ظهر البعير وهي استقالة محمد نجيب الأولى التي أعلن المجلس قبولها في ٢٦ من شهر فبراير على لسان صلاح سالم في بيان ركيك اللغة بذىء الأسلوب سطحي الأسباب كل هدفه التقليل والتشويه لشخص نجيب مما جعله مادة سخرية للشعب وبالطبع لم يصدق الشعب أى حرف مما قيل فيه بل يذكر خالد محيي الدين أنه سمع أمام أحد المحال رجلاً بعد سماع البيان يقول «دول طلّعوا ولاد كلب» وجاء فيه أيضاً استمرار مجلس القيادة برئاسة جمال عبد الناصر وتوليّه رئاسة الوزراء أيضاً..

وغضب ضباط المدفعية بالجيش أشد الغضب وثاروا في وجه المجلس وأبلغوه برفضهم وطالبوا بعودة نجيب وعودة الحياة النيابية، وهكذا غضب الشعب وغضب رجال بالجيش وتوحدت

القوى الوطنية من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار وخرج الشعب في مظاهرات منادياً بإلغاء هذه القرارات التعسفية الظالمة واهتزت القاهرة بزئير هؤلاء المخلصين الخائفين على مستقبل مصر وحدث الانقسام المتوقع في صفوف الجيش بين مؤيد ومعارض لنجيب والشعب كله وقف مع نجيب فما كان للمجلس من سبيل إلا أنه وافق على سحب هذه القرارات تهدئةً للشعب التائر ومكراً وتربصاً به وبالفعل أعلن المجلس بياناً نصه :

«حفاظاً على وحدة الأمة يعلن مجلس قيادة الثورة عودة اللواء أركان حرب محمد نجيب رئيساً للجمهورية وقد وافق سيادته على ذلك» فرح الشعب أشد الفرح بهذا القرار وخرج في مظاهرات احتفالية بعودة نجيب والإحساس بوضع أول قدم على طريق الديمقراطية ومهنتين لانتصار الديمقراطية في هذه الجولة ولكن حاول البعض إفساد الفرحة كما يحكى محمد نجيب في مذكراته :

«وفى ذلك اليوم خرجت مظاهرات ضخمة من جامعة القاهرة قاصدة ميدان الجمهورية وكان المتظاهرون يهتفون بحياتى وحياة الديمقراطية وردد بعضهم هتافات معادية لمجلس قيادة الثورة فوقعت اشتباكات بينهم وبين رجال الأمن والبوليس الحربى

بقيادة البيكباشى أحمد أنور الذى كان شديد القسوة والعنف مع المتظاهرين وأطلق رجال الأمن النيران فأصابت البعض وقبضوا على البعض الآخر وكان من بينهم عدد من الإخوان الذين ازداد نشاطهم بعد حل جماعتهم» وهذا الكلام يؤكد مدى حقد ضباط معسكر الشر على نجيب وأعوانه وعلى الحياة الديمقراطية بصفة عامة.

المهم انتهت المظاهرات وأسفرت عن قرارات ديمقراطية تضع مصر على أول الطريق الصحيح لتنتقل نحو آفاق الحرية والديمقراطية - لو كانت نفذت - وهى قرارات ٥ مارس التاريخية والتي كانت كالتالى:

١ - عقد جمعية تأسيسية منتخبة بطريق الاقتراع العام المباشر على أن تجتمع خلال شهر يوليو ١٩٥٤م ويكون لها مهمتان:
أ) مناقشة مشروع الدستور وإقراره.

ب) القيام بمهمة البرلمان إلى الوقت الذى يتم فيه عقد البرلمان الجديد وفقا لأحكام الدستور الذى ستقره الجمعية التأسيسية.

٢ - حتى تتم الانتخابات فى جو من الحرية تقرر إلغاء الأحكام العرفية قبل إجراء الانتخابات بشهر.

٣ - كما تقرر إلغاء الرقابة على الصحف والنشر.

٤- أن يستمر مجلس قيادة الثورة في ممارسة سلطات السيادة
لحين اجتماع الهيئة النيابية الجديدة.

لكن الفرحة لم تكتمل فقد جاء الغراب ليقطنسها، فقد قيل
أن عبد الناصر بعض التفجيرات وأثار بها الفوضى والقلق
في المجتمع ليشعر الشعب بأنه في حاجة للحماية وأن البلاد
مازالت غير مستقرة وهذا ما اتهمه به عبداللطيف بغدادى بأنه
هو الذى صنع تفجيرات السينمات والمسارح.

أيضا قيل أن عبدالناصر قد اتفق مع بعض قيادات العمال
بل اشتراهم بالمال مثل صاوى أحمد صاوى الذى باع نفسه
بمبلغ أربعة آلاف جنيه اشترى بها بعض الأفدنة من الأراضى
الزراعية بقريته قمن العرروس بمركز الواسطى مقابل حشد العمال
وخروجهم فى مظاهرات تنادى ببقاء مجلس قيادة الثورة فى
قيادة البلاد وتفعيل الإضرابات بالمصانع وقد ذكر خالد محيى
الدين فى مذكراته ما هو نصه «إذن أدرك عبدالناصر أن خطة
ه مارس لايمكن تنفيذها مع استمرار احتفاظه بالسلطة وبدأ فى
الالتفاف على هذه الخطة وترتيب الأمر للاتجاه فى مسار مضاد
تماما».

وطوال هذه الأيام انهمك عبد الناصر فى تنفيذ خطته فحشد
أكبر قدر من ضباط الجيش حوله وبالتحديد حشدهم حوله على

أساس رفض الديمقراطية وأنها ستؤدي للقضاء على الثورة وبدأ عن طريق طعيمة والطحاوى فى ترتيب اتصالات بقيادات عمال النقل العام لترتيب الإضراب الشهير..

ولك عزيزى القارئ أن تتصور إضراباً لعمال النقل تسانده الدولة وتحرض عليه وتنظمه وتموله.. وأتوقف تحديداً أمام كلمة «تموله» هذه. فلقد سرت أقاويل كثيرة حول هذا الموضوع لكننى سأورد هنا ما سمعته من عبدالناصر بنفسى فعند عودتى من المنفى التقيت مع عبدالناصر وبدأ يحكى لى ما خفى عنى من أحداث أيام مارس الأخيرة وقال بصراحة نادرة : لما لقيت المسألة مش نافعة قررت أتحرك وقد كلفنى الأمر أربعة آلاف جنيه».

انتهت شهادة خالد محيى الدين ولم ينته التاريخ.. وبالفعل تمت المكيدة بنجاح وعمت الإضرابات وخرج الغوغاء والعملاء ورجال البوليس والمخابرات وكثير من الجهلاء المغرر بهم فى شوارع القاهرة ينادون بسقوط الديمقراطية والرجوع إلى القرارات الديكتاتورية والهجوم على مجلس الدولة وانتصر معسكر عبدالناصر ومن بعدها اعتقل كل من نادى بالحرية والديمقراطية كالبطل يوسف صديق وغيره من أطيايف الشعب وبدأ التأسيس للحكم العسكرى الذى قيدها طوال هذه السنين وتم تصفية

المعارضين واحدا تلو الآخر إما بالنفى أو الاعتقال وأحيانا أحكام الإعدام المجانية، فقد جاء الدور على الضباط الأحرار أصدقاء الكفاح فبدأ بعبد المنعم عبدالرئوف ومعروف الحضرى وأبو المكارم عبد الحى وحسين حمودة وهم من الإخوان المسلمين ثم لحقهم من مجلس قيادة الثورة بخالد محيى الدين بالنفى ثم باقى الضباط الأحرار المخلصين من بعدهم ظلماً وزوراً ولم يسلم الشيوعون أيضاً من الأذى فقد أخذوا أماكنهم فى عمبوكات المعتقلات وكذلك لم تسلم الصحافة والأقلام الحرة من بطشهم. وثبت الحكم العسكرى قدمه بمصر ودور يوسف صديق فى هذه الأزمة كان قويا على الرغم من هذه الحراسة المشددة إلا أنه شارك وبقوة فى أزمة مارس ١٩٥٤م بآرائه المناهضة للديكتاتورية والمؤيدة لمطالب الشعب فقد أراد مقابلة صحفى فى جريدة المصرى يدعى «أمين عبدالمؤمن» ليجرى معه حواراً صحفياً يقول فيه آراءه وينشر من خلاله اقتراحاته والتي كانت تمهد للحكم المدنى عن طريق الديمقراطية كما ذكرنا قبل من تكوين الحكومة الائتلافية إلى عودة البرلمان مروراً بمرجوع الأحزاب وغيره وغيره..

وفعلًا استطاعت إحدى بنات يوسف صديق مقابلة الصحفى سرًا وإدخاله إلى البيت المحاصر بشكل سرى وتم عمل الحوار

ونشر به الخطاب الذى أرسله يوسف صديق إلى محمد نجيب
محتويآ آراءه واقتراحاته لحل الأزمة وكان نصه كالتالى:
كتب مندوب الجريدة يقول:

«زار القائمقام أركان حرب يوسف صديق عضو مجلس قيادة
الثورة سابقاً السيد الرئيس اللواء محمد نجيب وحدثه فى الأوضاع
الراهنة ثم أرسل لسيادته كتابا برأيه فى حل الموقف هذا نصه:
السيد رئيس الجمهورية ورئيس مجلس قيادة الثورة ورئيس
مجلس الوزراء والحاكم العسكرى العام لجمهورية مصر البرلمانية
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

فلا شك أنكم تقدررون مدى المسئولية التى أتحملها معكم أمام
التاريخ عن مصير هذه البلاد نتيجة للعمل الإيجابى العنيف
الذى قمت به فى يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٣م، والذى لا أستطيع
أن أفلت من مسئوليته حتى بعد استقالتي من مجلس قيادة الثورة
فى فبراير سنة ١٩٥٣م فالتاريخ صارم فى حسابه.

ولا يسعنى وأنا أشعر بهذه المسئولية وأرى ما يجرى فى هذه
الأيام الأخيرة من أحداث أن أتخلف عن أداء واجبى نحو هذا
الوطن بعرض ما أراه كحل للأزمة الشديدة التى تعانىها البلاد
فى هذه الظروف العصيبة حتى أكون قد أديت واجبى كاملاً

نحوكم كزملاء يتحملون مسؤولية ضخمة أمام التاريخ ونحو البلاد التي أصبحت في حاجة ماسة إلى علاج عاجل حاسم تستقر به النفوس وتهدأ الأعصاب وتنام الفتنة التي تطل برأسها على الشعب.

وانى أعرض رأبى على الوجه الآتى :

١ - إن حال البلاد الآن أشبه بحال المريض ويحاول كل مخلص من أبنائها أن يهتدى إلى العلاج الناجح وأن يهدى إليه الآخرين فإذا طال الجدل فى هذا الموقف دون الوصول إلى العلاج تعرضت حياة المريض إلى خطر محقق. ليس أخطر منه إلا أن يجرعه السم بدل الدواء.

٢ - لا يمكن الوصول إلى العلاج إلا بعد التأكد من معرفة الداء.

٣ - بالرجوع إلى التاريخ الذى عملناه من يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢م إلى أن وصلنا لهذه الحالة نلمس الآتى :

(أ) بعد طرد فاروق من البلاد فى ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢م بدأ مجلس قيادة الثورة مناقشة الخطوة التالية التى كانت تتلخص فى هذا السؤال :

«لن الحكم؟» وكان هناك رأيان فى الجواب عن هذا السؤال أما أحدهما فكان يرى دعوة البرلمان المنحل لىباشر سلطته الشرعية

وأما الآخر فقال بعدم دستورية هذا الحل ورأى أن نذهب مذهباً آخر ثم استقر الرأي على استفتاء قسم الرأي بمجلس الدولة مجتمعاً لهدايتنا إلى التصرف الدستوري السليم فأفتى بأغلبية تسعة أصوات ضد صوت واحد بعدم دستورية دعوة البرلمان وكان الصوت الواحد للدكتور وحيد رأفت..

(ب) سرنا على هدى هذه الفتوى ووصلنا إلى الحالة السيئة الراهنة وتبين أننا ضللنا الطريق .

(ج) بعد أن تبين لنا بوضوح أننا ضللنا طريقنا فلا يكون هناك تصحيح للوضع سوى أن نعود إلى حيث أشكل علينا الأمر فنصح طريقنا.

٤- على ضوء هذه الحقائق نجد أن علاج الموقف ينحصر في أحد حلين لا ثالث لهما:

(أ) دعوة البرلمان المنحل ليتولى حقوقه الشرعية.

(ب) تأليف وزارة ائتلافية تمثل التيارات السياسية المختلفة القائمة فعلا في البلاد وهي الوفد والإخوان المسلمون والاشتراكيون والشيعيون تشرف على إجراء انتخابات للبرلمان في أسرع فرصة حتى تختار البلاد حكامها الشرعيين ويعود الجيش إلى ثكناته ليستعد للقيام بواجبه في تحقيق أهداف الشعب في حدود طبيعة عمله التي تنحصر في الاستعداد لمعركة التحرير.

وأقترح أن يكون رئيس الوزارة المقترحة هو الدكتور وحيد رأفت الذى أكسبته حوادث التاريخ هذا الحق فلا تكون الرئاسة محلاً للخلاف.

٥ - أى حل آخر غير هذين الحلين يكون بمثابة إعطاء المريض السم بدل الدواء فيكون مجافياً للديمقراطية التى تنشدها الثورة، ومن ثم يكون سبباً فى استمرار الاضطراب الحالى وما يترتب عليه من سوء النتائج.

٦ - إن استمرار الحكومة الحالية فى حكم البلاد لتصرف شئونها يعد أن أعلن الشعب رأيه فيها وكذلك استمرار الهيئات التى أنشأتها هذه الحكومة كلجنة الدستور مثلاً هو استمرار للسياسة التى ثبت فشلها وخطرها، فما دامت الحكومة قد قررت أن تترك للشعب أموره فليس لها أن تفرض عليه أو تقترح له فإنما قمنا يوم ٢٣ يوليو لتمكين الشعب من أموره دون أن تكون لنا الوصاية عليه لاسيما بعد أن أعلن هو رغبته فى ذلك وإصراره عليه وإننى أسأل الله لكم السداد والتوفيق .

والله ولى التوفيق

القاهرة فى ١٧ مارس سنة ١٩٥٤م

القائم مقام أركان حرب يوسف منصور صديق عضو مجلس

قيادة الثورة سابقاً.

وبالفعل نشر الحوار ونص الخطاب فى جريدة المصرى بتاريخ
٢٤ مارس ١٩٥٤م وبعد نشر الخطاب فى جريدة المصرى زادت
الفجوة بين جمال عبدالناصر ويوسف صديق أكثر وأكثر وتم
الاعتقال بعدها بأيام..

□□□

الفصل الثالث

الاعتقال

«إن رجالنا لا يكونون».. بهذه العبارة ونَّع البطل يوسف صديق ابنه الصغير حسين (٩سنوات) بعدما جاء رجال الجيش بأمر اعتقاله في صباح يوم ١ أبريل ١٩٥٤م ليودعوه سجن الأجانب مع باقى شرفاء هذا الوطن فى هذه الحقبة التاريخية السوداء من تاريخ مصر..

ومن شدة نذالة هؤلاء المعرضين أنهم بعثوا للقبض على يوسف صديق أحد تلاميذه والذي ظل يعتذر ليوسف صديق وأبلغه أنه يمكن أن يرجع ويعتذر عن هذه المهمة ولكن البطل يوسف صديق ربت على كتفه وأفهمه أنه يعلم أنه مغلوب على أمره وأنهم يقصدون إهانته هو - أى يوسف صديق - ولكنه أبلغ تلميذه أنه غير غضبان منه وأنه عموماً أفضل من ينفذ هذه المهمة عن غيره..

وبعدما دخل يوسف صديق المعتقل فى أبريل ١٩٥٤م لحقت به زوجته فى مايو ١٩٥٤م ولبث فى السجن ١٤ شهراً قضاها أسيراً مريضاً وأُفرج عنه فى يونيو ١٩٥٥م وأثناء تواجده فى السجن رزقت ابنته بمولود جديد فسمته يوسف على اسم جده

فحزن أشد الحزن على عدم تمتعه بالنظر إلى حفيده المسمى على
اسمه وكتب قصيدة بعنوان «استقبال الصديق» وكانت كالتالي:

أقبلت تسعى من الظلماء للنور
فأسلمتك دياجيراً لديجور
أشرق بنورك فالأيام حالكة
من هول ما اقترفت فينا من الجور
إن الرسالة في أسعائنا لمعت
فحملتنا ثواب الهدى بالنور
ونحن نعلم أن السجن منزلنا
حتى تُدك حصون الإفك والزور
ونحن نعلم أن الموت موردنا
نلقاه في الله في بشرٍ وتكبير
جرد حسامك فالبيدان مفتقداً
سيفاً يضيء به في كف تحرير
والحق بقومك أسرع إنهم سبقوا
وخذ مكانك في ركب المغاوير

تم الإفراج عن البطل يوسف صديق في يونيو ١٩٥٥م لكنه ظل

تحت تحديد الإقامة هو وأسرته وخاصة زوجته «علية توفيق» أو «الزوجة العقربة» من وجهة نظر جمال عبد الناصر الذى وصفها هذا الوصف لأحد أصدقاء يوسف صديق وأوصاه أن يطلقها ويعود إلى رفقة عبدالناصر!

لكن بالطبع كانت الاجابة بالثبات على المبدأ..

وظل تحديد الإقامة على الأسرة حتى سنة ١٩٥٦ وعلى الرغم من ذلك لم يثنه هذا عن الدفاع عن الوطن ليقود المقاومة الشعبية أثناء العدوان الثلاثى فى عزبة النخل التى انتقل إليها بعد الاعتقال ليعيش مع زوجته على توفيق التى خرجت أيضاً بعده من المعتقل بعدما رفض يوسف صديق الخروج وحيداً بدون زوجته وطلب خروجها من المعتقل قبله لكنهم وعدوه بأنها ستخرج بعده مباشرةً وبالفعل حدث..

وفى المعتقل سجل يوسف صديق بعض ألوان التعذيب والإهانة التى تعرضت لها كل قوى المعارضة بلا استثناء ومنها ما ذكرناه سابقاً وما سرده يوسف صديق لابنته فى إحدى الزيارات عن قصة هنداوى دوير وزوجته.

وفى فترة المعتقل قد سجل أيضاً البطل الشاعر هذه الأبيات إلى جمال عبدالناصر فى قصيدة بعنوان «فرعون» قال فيها:

ألا أيهذا الشقى الحرون
ولما حكمت كشفت الفتون
صحوت لها من وراء القرون
وأنتم عبيدٌ ولى تسجدون
عروشٌ وعرشك واهٍ مهين
بشعبك فرعوننا يعبثون
وكم ينهبون وكم يقتلون
وقار الشيوخ وطول الذقون
على ناظريك بقاع السجون ؟
أكل رجالى من المجرمين؟
بأسر رجالى وما يعلمون
تباعد عنك مثار الظنون
ورحت بروحى ألقى المنون
وما كنت أحسبكم تبتغون
وتعرف قدرك ماذا يكون

ألا أيهذا الدعى اللعين
لبست المسوح وضللتنا
أفرعون مصر وجبارها
وناديت فى الناس إنى إله
ولكن فرعون دانت له
ففى أرض مصر غزاة طغاة
يعيشون فىنا فساداً وبغيا
سجنت النساء ولم تحترم
أعرضى يباح ويلقى به
أكل رجالى غدرت بهم ؟
ولما وقعت وعبد الحكيم
وقد كنت مختفياً فى ثياب
فأنقذت روحيكما من هلاك
أحقق فى الله ما أبتغى
غدا تلتقى يا جمال الوجوه

الفصل الرابع أخلاق الفرسان

يوسف صديق وتأميم القناة

ديليسيبس.. كلمة من سبعة أحرف لكنها ليست كالكلمات العادية وإنما هي كلمة من قاموس كلمات الثورة كأختها «نصر» التي كانت كلمة سر ثورة يوليو ولكن هذه المرة كانت «ديليسيبس» هي كلمة سر التحرك لتأميم قناة السويس الكلمة التي نطق بها عبدالناصر في ١٩٥٦ والتي كانت مفتاح تأميم قناة السويس كلمة لن ينساها الشعب المصرى وبقيت خالدة في تاريخه فهذه الكلمة أيضاً هي التي هيجت مشاعر البطل يوسف صديق وألهبت حماسه ليتناسى الخلاف القائم بينه وبين جمال عبد الناصر ويسانده برأيه ويعلم مؤازرته له ودعمه لقرار تأميم القناة..

ووقع خبر تأميم القناة على الغرب كالصاعقة واضطربت آراؤهم وقراراتهم وبدأوا بإرسال المفاوضين لجمال عبدالناصر لعدوله عن هذا القرار وكان ممن أرسلوهم رئيس وزراء أستراليا في ذلك الوقت «منزيس» والذي جاء مفاوضاً مرهباً مهدداً من عقبات وويلات هذا القرار.

وما أن سمع يوسف صديق بأخبار هذه الزيارة حتى استشاط
غضباً وثارَت حميته الوطنية واشتعلت بداخله شعلة الشعر
ليخرج قصيدته «إلى منزيس» والتي نشرت في جريدة الجمهورية
بتاريخ ١٩٥٦/٩/٣ والتي قال فيها:

رسول الغرب حيّ النيل واخفض
قوامك بالتحية والجبيننا
وحى معالم التاريخ واركع
تبرك بالقنال وطور سينا
إلى الوادى المقدس جنّت فاخلع
به نعليك شأن المؤمنيننا
وتمتم بالسلام تكن حصينا
وتحيا سالماً ما دمت فينا
سعيت إلى العرين فكن لبيبا
يخون اللب من زار العريننا
رسول الغرب جنّت فكن شهيدا
وبلغ أهلك الخبر اليقيننا
ألست ترى الرجال مدججينا
على طول القنال مرابطينا

وتلك نساؤنا هبَّت بكيسٍ
لهن ورحن يحمين الحصونا
هنا شعبٌ وراء جمالٍ ماضٍ
إلى أهدافه يقظاً أميناً
تطوع للجهاد على ولاءٍ
لقائده وأقسم لن يلينا
فقال للغاصبين هناك مهلاً
فما نيل المنى للغاصبينا
وتلك قناتنا ردت إلينا
وما كنا لحق غاصبينا
فقيم أقمتم الدنيا علينا
وبتم ضدنا متآمرينا
رمىتم سهمكم بالعدر حيناً
وبالتضليل والبهتان حيناً
زعمتم أننا الإسلام يصحو
يهدد دين عيسى أن يبيننا
فأوهى كيدكم سعى النصارى
بمصر إلى الهلال معانقيننا

وأوهى كيدكم أنا وقفنا
وراء زعيمنا صفاً متيناً
وللإسلام صهرٌ فى النصارى
يولد بينهم عطفاً ولينا
ومذ كان السلام لنا إلها
نهانا أن نقاتل معتديننا
وننصر كل مظلوم يعانى
حماقات الطغاة الظالمينا
تناصرنا الشعوب على سلام
ويقنع حقناً هنداً وصينا
تحيتنا «سلام» بيد أنا
نذود عن السلام إذا دُعينا
ونسحق كل جبارٍ عنيدٍ
يهدد بالحروب الآمنينا

يوسف صديق والمقاومة الشعبية للعدوان الثلاثى

العدوان الثلاثى كان هو ردة الفعل التى لم يتوقعها أكثر المتشائمين أن تكون بهذه القوة ولكن كان لكل دولة من الدول

التي أقدمت على العدوان أسبابها الخاصة للمشاركة فيه ، فمثلا فرنسا كان لدعم ثورة الجزائر بالسلاح والمال الأمر الذي هدد التواجد الفرنسي في الجزائر خاصة وفي إفريقيا بصفة عامة أما إسرائيل فكان لديها الكثير من الأسباب ناهيك عن حلمها من النيل إلى الفرات فقد كانت تريد الاستحواذ أكثر وأكثر على أجزاء من الوطن العربي ومن فلسطين وسيناء خصوصاً بعد علمها بتوقيع صفقات سلاح بين مصر والاتحاد السوفيتي ستثري مصر بالكثير من الأسلحة المتقدمة والمتطورة مما أثار حفيظة إسرائيل ودفعها للمشاركة في العدوان.

أما بريطانيا فقد أخذتها العزة بالإثم فكيف لمصر أن تؤم قناة السويس التي كانت تديرها وتدر عليها دخلا لا تحصل على مثله من أكبر مشاريعها فهاجت وماجت وأصرت على العدوان واتحد الظلم يدا واحدة على مصر وبدأت الدول الثلاث بالهجوم ، ولكن بفضل الله لم يكتمل مخططهم اللعين بل باء بالفشل فلم تقف معهم أمريكا ولا الاتحاد السوفيتي بل هددت أمريكا بضرب لندن وباريس ، وعلى الجانب الآخر فقد وقفت المقاومة الشعبية موقف الرجال ونشطت الفرق الشعبية في جميع أنحاء البلاد عموماً وفي مدن القناة خاصة ، وعلى الرغم من الحصار الذي

كان يعيشه البطل تحت الإقامة الجبرية فإن هذا لم يمنعه من المشاركة فى المقاومة الشعبية فقد ارتدى زيه العسكرى ونزل إلى الشارع كاسراً الإقامة الجبرية منظماً لأفراد المقاومة الشعبية ومدرباً لهم مستخدماً خبرته الحربية وحسه العسكرى لينقلب المشهد بدلاً من حبيس إلى قائد للمقاومة الشعبية التى كانت أحد أسباب انسحاب العدوان الثلاثى عن مصر.

وفى الوقت الذى شمت فيه الكثير فى جمال عبد الناصر ولاموه على تأميم القناة بل زاد البعض ودعاه إلى الاستسلام وتسليم نفسه إلى السفارة البريطانية. وتركه الكثير ليقابل الأهوال وحده، فى نفس الوقت نجد بطلنا يوسف صديق يقف بجانبه موقف الأحرار ويتناسى مرة أخرى الخلاف ويناشده عدم الاستسلام والمقاومة حتى آخر قطرة دم..

وقد كان ذلك ظاهراً فى قصيدته «الله أكبر» التى كتبها ونشرت فى جريدة الجمهورية مسانداً فيها جمال عبدالناصر وداعياً إلى المقاومة وعدم الاستسلام والتى قال فيها:

لحن من النيل السعيد ترددا

فتراقص الأرز البهيج وغردا

ودمشق رتلت النشيد فهيمت

صبا مشوقا فى عمان فأنشدا

تلا الحجاز اللحن فاهتزت له
صنعا ودوى فى العراق له صدى
ومن الخليج الفارسى لأطلس
شعبٌ تغنى بالنشيد ورددا
هذا نشيد البعث فاسمع لحنه
غناه شعب الضاد حين توحدوا
الله اكبر أذن الفجر فقم
وارقب سنى النور من الشرق بدا
الله اكبر بددت شمل الدجى
من بعد ليلٍ كان يبدو سرمدا
الله اكبر والسلام إلهنا
بات الطريق إلى النعيم معبدا
فكل شعب أرضه بكنوزه
يحيا بها كريماً سيدا
فاليوم لاشعبٌ تضيع حقوقه
بين الطغاة ولا يرى مستعبدا
الله اكبر يا (جمال) جمعتنا
والعهد دون الحق أن نستشهدا

فاضرب وراءك أمة إن تدعها
اتسابتت واستعذبت طعم الردى
أوجع خصوم الحق حتى يسلّموا
رغم الأنوف بعدل حقلك سجدا
شعب العروبة قد أتاك مجندا
ووراءه شعب السلام مؤيدا
وإذا الشعوب تحركت بقلوبها
لكريهة فالنصر بات مؤكدا
يا مصر عهد الله هذا بيننا
أن لا نلين وأن نكون لك الفدا
إننا وعدناها إعادة مجدها
فلتشهد الدنيا وموعدنا غدا

انتهى العدوان الثلاثى على مصر وعاد أهله إلى بلادهم خائبين
وانتصر عبد الناصر سياسيا وشعبيا ورفعت الإقامة الجبرية عن
البطل يوسف صديق وأسرته كنوع من رد الجميل على كرم
الأخلاق الذى أظهره البطل يوسف صديق وقت الأزمات والذى
لم يكن يتوقع منه فى حين تخاذلت أقلام الكثيرين وسكت
البعض الآخر ليرى إن كان فيها مغنم فيكتب ويكن مع الراحين
وإن كانت خسارة لام وعاتب.

المهم رفعت الإقامة الجبرية ليكمل البطل بقية حياته بشيء من الحرية ولكنه تمنى الكثير والكثير لخدمة وطنه وشعبه ولكن للأسف لم يفسح له المجال للمشاركة فى أى صحف أو مجلات تصدرها الدولة ولم يسمح له أيضاً بأن يتقلد أى منصب عسكرى أو حتى أن يرتقى أى منبر فكرى أو أدبى يستطيع من خلاله خدمة بلده ومجتمعه وعاش بقية حياته يعانى مادياً ومعنوياً فقد عانى جسدياً من آلام العمود الفقرى الذى عاش به طوال حياته ولبس بسببه الجاكت الجبس ولكن هذه المعاناة التى فى سبيل الوطن كانت تهون أمام المعاناه المعنوية التى عاشها طوال حياته وأعتقد بعد مماته والتى تمثلت فى تهميشه وتهميش دوره التاريخى فى تاريخ مصر الحديثة.

□□□

الفصل الخامس

على طريق الرحيل

إعدام ديوان شعر

بعدما أُحيل البطل يوسف صديق إلى التقاعد وخصوصاً في فترة ما بعد العدوان الثلاثي على مصر لم يكن يوسف صديق مرتبطاً بعمل ما ولذلك كان متفرغاً للقراءة والأدب والسهر الثقافي مع الأصدقاء، ومن هنا كانت فرصة جيدة له كي يجمع كل أشعاره من الصحف والمجلات والأوراق المهملة عنده ويدونها في دفتر كبير احتفظ به وحافظ عليه وفي إحدى الليالي زاره صديقه الكاتب إبراهيم عبد الحليم ووجد معه هذا الدفتر المليء بالأشعار فأخذه منه وأصر على طبعه ونشره من خلال دار النشر التي كان يمتلكها ولكن الفرحة لم تكتمل فقد شم رجال البوليس السياسى الخبر وعلموا بأن الديوان سينشر من خلال إبراهيم عبد الحليم فداهموا دار نشره واعتقلوه وصادروا الديوان وبعد فترة أفرجوا عن الكاتب إبراهيم عبد الحليم ولكنهم لم يفرجوا عن الديوان ونفذوا فيه حكم الإعدام..

وبعد وفاة البطل يوسف صديق استطاع ابنه حسين جمع الكثير من أشعار أبيه من الصحف والمجلات ومما يحفظه الأهل والأقارب ومما وجدته في أوراق أبيه وتم نشرها في عام ١٩٩٩م في ديوان بعنوان «ضعوا الأقلام».

النكسة والمرض

في عام ١٩٦٧م قامت إسرائيل بحرب غادرة هزمت فيها الجيوش العربية وفي مقدمتها مصر وقد سماها المؤرخون المجاملون لنظام عبد الناصر نكسة ١٩٦٧ تخفيفاً من وطأة كلمة هزيمة وتخفيفاً على الشعب من صدمة الهزيمة السريعة التي منى بها الجيش المصري والذي كشفته على حقيقته أو بالأحرى كشفت بعض قاداته الجدد على حقيقتهم وعدم اهتمامهم بالجيش والجرى وراء الممثلات والراقصات في الملاهي والشقق المفروشة فقد قتل أو فقد من الجيش المصري حوالى من ١٠ آلاف إلى ١٥ ألف جندي وكما نقل أمين هويدى عن كتاب الفريق أول محمد فوزى وزير الحربية في فترة ما بعد النكسة أن خسائر مصر من القوات الجوية كانت بنسبة ١٠٠٪ وخسائر القوات البرية كانت بنسبة ٨٥٪.

وانتهت الحرب باحتلال إسرائيل لسيناء ولم تكن هزيمة

١٩٦٦م مادية فقط بل كانت هزيمة معنوية أكثر منها فمنذ ذلك حين وشيء ما انكسر داخل البطل يوسف صديق وبدأ ذلك ظهر على جسمه فمرت عليه الأيام سوداء قاتمة فلم يتوقع ن الجيش المصرى العظيم وصل إلى هذه الدرجة من الضعف لمى يد هؤلاء اللثام فحزن أشد الحزن على جيشه الذى تربى به وربى فيه الكثيرين من الأبناء المخلصين لهذا الوطن والذين نان مصيرهم كمصير البطل بالإحالة للتقاعد وبدأت هذه الحالة نفسية السيئة تؤثر فيه بدنياً فمرض فى القلب وارتفاع نسبة لسكر بالدم وارتفاع ضغط الدم بالإضافة إلى مرضيه السابقين آلام لعمود الفقرى والتي ألزمته لبس الجاكت الجبس لمدة عشرين عاما ونزيف الرئة الذى لازمه طوال حياته. وزاد عليه المرض وبدأ يحاصره ويتمكن منه وفى إحدى زيارته المؤازرة والمساندة لجمال عبد الناصر بعد النكسة نصحه عبد الناصر بالسفر للعلاج فى الاتحاد السوفيتى وبالفعل فى أوائل سبتمبر من عام ١٩٧٠م أصدر عبد الناصر قراراً بسفر يوسف صديق للعلاج فى الاتحاد السوفيتى فى سنة ١٩٧٠م وبالفعل سافر للعلاج هناك بموسكو ولكن للأسف لم يستطع الطب الروسى تقديم أى شيء للبطل يوسف صديق لأن المرض لم يكن كما شخصوه هم فقط ولكنه

كان قد أصيب بالسل والسرطان كما عرف بعد ذلك في رحلته
العلاجية سنة ١٩٧٢م بلندن...!

كتابه: الإسلام والمسلمون في الاتحاد السوفيتي

استغل يوسف صديق فترة علاجه في الاتحاد السوفيتي واهتم
بشئون الإسلام والمسلمين هناك وقرأ في الاشتراكية ومدى مطابقتها
للإسلام من منظور عملي كما يعتقد - كما ذكرنا من قبل - وألف
كتاباً بعنوان «الإسلام والمسلمون في الاتحاد السوفيتي»، وقد
احتوى الكتاب على أربعة فصول كانت كالتالي:

- الفصل الأول يتناول مرحلة ما قبل الثورة الاشتراكية.
- الفصل الثاني يتناول المسلمين والثورة الاشتراكية.
- الفصل الثالث يتناول الحياة الروحية للمسلمين.
- الفصل الرابع يتناول شهادات واقعية.

وقد أهدى يوسف صديق الكتاب «إلى أرواح الذين سقطوا في
المعارك ليزيدوا من أرباح تجار الحروب.. إلى كل إنسان ضلوه
بزخرف القول فحمل السلاح وراح يقتل نفسه أو أخاه الإنسان
لصالح الشيطان. إلى الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا...».

وفاة عبد الناصر

آخر مهام عبد الناصر قبل وفاته كانت الوساطة لإيقاف أحداث أيلول الأسود بالأردن بين الحكومة الأردنية والمنظمات الفلسطينية في قمة القاهرة في ٢٦ إلى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠م حيث عاد من مطار القاهرة بعد أن ودَّع صباح السالم الصباح أمير الكويت. عندما داهمته نوبة قلبية بعد ذلك وأعلن عن وفاته في ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠م وتولى مصر بعده نائبه محمد أنور السادات. أثناء رحلة يوسف صديق العلاجية بالاتحاد السوفيتي سمع بخبر وفاة جمال عبد الناصر في ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠م فما منه إلا أن أظهر أخلاقه الكريمة فبعث ببرقية عزاء للسادات ومعها تأييد للسادات بل كتب قصيدة رثاء في عبدالناصر يشعر من يقرأها بأن هذين الرجلين لم يختلفا أبداً وأن ما تم بينهما مجرد وجهات نظر وهذه هي صفات الرجال في الظروف الحرجة فما هو يبكي صديقه ويرثيه بقوافيه الحزينة في قصيدة بعنوان «دمعة على البطل» تم نشرها في ذكرى وفاته ليطوى بها صفحة جمال عبد الناصر بحلوها ومرها وقال فيها:

أبا الثوار هل سامحت دمعى

يفيض وصوت نعيك ملء سمعى

وكننا قد تعاهدنا قديما
على ترك الدموع لذات روع
وإن الخطب يحسم بالتصدى
لهول الخطب فى سيف ودرع
ولكن زلزل الأركان منى
وهز تماسكى من جاء ينعى
وفاتك وأنت ملء الارض سعيًا
وذكرك قائم فى كل ربع
بكتك عيون أهل الأرض حولي
فكيف أصون بين الناس دمعي
قضيت شهيد وحدثنا تقوى
روابطها وتجبر كل صدع
فما للعرب فى الدنيا مكان
بغير تماسكٍ وبغير جمع
رسمت لنا الطريق وسوف نمضى
على هذا الطريق بغير رجوع
سنمضى فى طريق الحق حتى
نظهر من ثرانا كل صقع

وللعمال بالعمال نبني
ونصنع بالمصانع خير صنع
وللفلاح بالفلاح نروى
صحارينا ونزرع خير زرع
ففى العمال والفلاح درع
لثورات الشعوب وأى درع
جزاك الله عنا كل خير
ورواك الرضا من كل نبع

المرض والوفاة

وللبطل يوسف صديق مع المرض قصة طويلة انتهت بوفاته
تبدأ من عام ١٩٣٤م حيث عانى من المرض فى عموده الفقرى
حوالى عشر سنوات إثر تعرضه لحادث موتوسيكل فى بداية
خدمته أدت إلى تسوس فى بعض الفقرات مما ألزمه وضع جاكته
من الجبس ثم حزاماً حديدي حول ظهره لفترة أخرى ولم يكد
يخلع جاكته الجبس سنة ١٩٤٤م حتى أصيب بنزيف بالرئة
اليسرى عام ١٩٥٠م أثناء خدمته بالسودان ونقل بالطائرة إلى
المستشفى العسكرى بالقاهرة للعلاج لكن النزيف ظل يعاوده وفى
ليلة الثورة قام يوسف بدوره الحاسم وهو يعانى من نزيف الرئة

هذا ولم يعالج منه علاجاً حاسماً حتى تطور في النهاية إلى الإصابة بالسل والسرطان في تلك الرئة مما أدى إلى استئصالها في نهاية الأمر بلندن وظل يعاني منها حتى الوفاة وعقب الأحداث الجسام التي مرت به في السجن له ولأسرته أصيب بمرض السكر وضغط الدم وفي سنة ١٩٧٠م سافر للعلاج في موسكو وكان مرضه الظاهر في ذلك الوقت هو السكر والإكزيما وتم الكشف عليه هناك والحقيقة أن مرضه العضال لم يكن في السكر ولا الضغط ولا غيرهما ولم تكن هذه الحقيقة كما أظهرتها الفحوص بعد ذلك. وفي عام ١٩٧٢م سافر إلى لندن للعلاج وأخذ معه تقارير الأطباء الروس والمصريين عن حالته الصحية وما كادت المستشفى الإنجليزية تضعه تحت الفحوص حتى ظهرت المفاجأة وهي إصابته بورم في الرئة اليسرى وبتحليل هذا الورم تبين إصابة هذه الرئة بمرضين من أخطر أمراض العصر وهما السل والسرطان وأن المرض قد تمكن من ثلث الرئة السفلى ولا بد من استئصاله على الفور وأدخل إلى غرفة العمليات على وجه السرعة وأجريت له الجراحة الخطيرة التي تم فيها استئصال ثلثي الرئة .

ثم عاد إلى لندن مرة أخرى سنة ١٩٧٣م لتكملة العلاج بعد أن تمكن المرض منه لكن دون فائدة فعاد راقداً على فراشه بالقاهرة منتظراً للموت بشجاعة.

وفى مارس ١٩٧٥م رأى بعض تلاميذه ضرورة نقله إلى مستشفى المعادى للقوات المسلحة وبالفعل نقل من منزله إلى غرفة الإنعاش بالمستشفى حيث كان واضحاً أنه فى ساعاته الأخيرة ورحل البطل يوسف صديق عن عالمنا ليحلق فى عالم الأرواح فى ٣١ مارس عام ١٩٧٥م.

وانطوت صفحة من تاريخ مصر لم يشعر بها الكثير عندما فتحت.. ولا عندما أغلقت.

وقد ختم يوسف صديق حياته الأدبية بهذه الأبيات الرائعة التى يحاور فيها الزمان ويصارعه ويقول:

ختام تخدع يا زمان وأخدع
وأرى سرايبا فى القفار وأتبع
عودتنى صبر الرسول على الأذى
علمتنى أن الحياة توجع
أبنى فتهدم يازمان معاقلنى
وأجدد البنيان ثم تضعضع
لا أنت تخضع يا زمان لهمتى
أبدأ.. ولا أنا للنوائب أخضع

رحل البطل ونعته جريدة الأخبار في يوم ١٩٧٥/٤/٢ بهذه
الكلمات تحت عنوان: مصر تشيع جنازة يوسف صديق..
«شيعت مصر ظهر أمس ابنا من أبنائها الأحرار المرحوم
يوسف صديق عضو مجلس قيادة الثورة.

سارت الجنازة من ميدان التحرير إلى جامع جركس. لف
جثمان الفقيد بعلم جمهورية مصر العربية ووضع على عربة مدفع.
سارت في مقدمة الجنازة موسيقات الجيش في مجموعات
رمزية من ضباط الجيش وطلبة الكلية الحربية ثم أكاليل الزهور
من رئيس الجمهورية ومختلف أسلحة القوات المسلحة وأمانة
الاتحاد الاشتراكي.

وتقدم المشيعين الفريق سعيد الماحي كبير الياوران مندوباً
عن الرئيس محمد أنور السادات والرئيس السابق محمد نجيب
وحسين الشافعي نائب رئيس الجمهورية وأعضاء مجلس قيادة
الثورة الذين على قيد الحياة والمهندس سيد مرعي رئيس مجلس
الشعب والدكتور عبد العزيز حجازي رئيس الوزراء والدكتور
محمد حافظ غانم أمين الاتحاد الاشتراكي وعدد من الوزراء
والضباط الأحرار.

وسارت الجنازة وسط الآلاف من أبناء الشعب الذين اصطفوا

على جانبى طريق الجنازة وفى ميدان التحرير وميدان طلعت
حرب وحتى جامع جركس. وتم نقل جثمان الفقيد الكريم إلى
مدافن الأسرة بالبساتين.»

جريدة الاخبار ٢ / ٤ / ١٩٧٥

□□□